روما

المدينة الخالدة . سيدة العالم قروناً هذا عددها والآمرة الناهية غير منازعة زمناً طال ولم ينقض بعد . مركز الامبراطورية وكرسي المسيحية

بل هي عالم قائم بنفسه في ذاتها . فكل شيء احتوى العظمة حوته وضمتهُ بين تلالها . فالفن والدين والتاريخ والسياسة من ابنائها . قومها استولوا على المجد فبنى ومشوا فوق رؤوس الاحقاب يباهون بالوثنية ويفخرون بالمسيحية

يحطمون مجد اثينا ثم يتلونهُ ويتمثلونهُ حتى اذا آذن الدهر حطمهم البربر فما ازالوا من مجدهم وما انقصوا من حضارتهم بل اخذوها اكليلا بالياً وزعوها على اقوامهم تيجاناً زاهية على رؤوس لا تزال قائمة

فيها نبتت الحضارة البيزنطية فلما لم تلاق في ارضها تربة خصبة ولّت وجهها شطر الشرق فاقامت في القسطنطينية ثم البستها حلل الحزي والعار

فيها تنازعت القرون الوسطى وتحولت وتغيرت

ففي القرن الثالث عشر بلغت فيها السيادة الدينية ما بلغت من سطوة ومن هيبة وفي القرنين الخامس عشر والسادس عشر شاهدت عصر التجديد يبلغ الحلم فاخذت باسبابه فعاد اليها شبابها بعد ان قاومتهُ ورأت بدهائها ان المقاومة لا تجدي

هي نقطة الدائرة لكل العظمة البشرية . ملأها قومها باعمالهم ولا يزالون يشعرون بها ويحالون بآثارهم

وليس اغرب من تاريخها تاريخ فمن مضرب لرعاة الغنم الى قرية الى مدينة محصنة الى امة صغيرة الى مملكة ذات صولة الى جمهورية ضمّت البأس والشرف الى امبراطورية حتى لها الدهر رأسه . ثم يتلو ذلك تحول من عظمة وتيه الى مجد ديني ضمّ الدنيا واحتكر الآخرة فناء بما حمل فهوى فتكسر فانبعثت اوربا الحديثة من بقايا تحطمه

***

وبما روما خالدة ؟

أبالفن وقد احاطتهُ بنايتها في كل ادوار عظمتها — فن وثني يمتُّ الى اثينا بنسب شرف وفن مسيحي تقمصت فيه الوثنية عادة للذراء وابنها

ام بالبأس وقد تجسد في جيوشها المرتّمة تخضع العالم

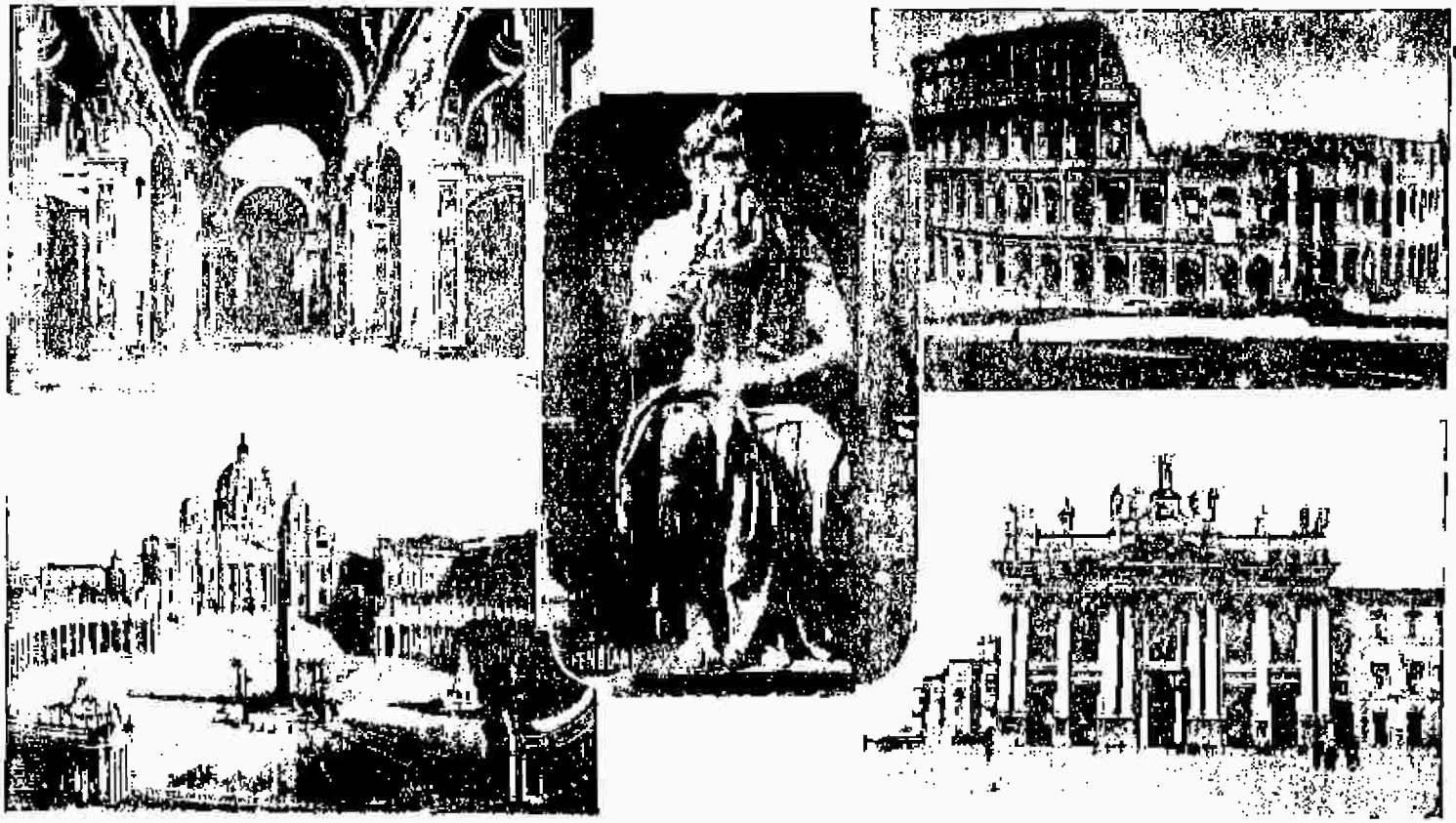

بعض مشاهد روما : المدينة الخالدة

(فوق) الكولوزيوم : يمين ، داخل كنيسة القديس بطرس : يسار ، (تحت) كاتدرائية القديس يوحنا اللاتراني
بأعلى قسطنطين الكبير : يمين ، ميدان القديس بطرس : يسار ، (وسط) تمثال موسى من نحت ميكل انجلو

ام بالقانون يسوسهُ نظاماً لا تزال الدنيا تأخذ به حتى الساعة
ام بالسياسة وقد برعوا فيها وصالوا وجالوا كفاراً ورهباناً
ام بالدين وقد ورثوا منهُ اسم المسيح فاقاموا على ميراث ليس من هذا العالم تسلطاً وتحكماً وجبروتاً كلهُ علني
بل هي خالدة بشيئين

وهذان ليسا مادة تحدُّ وتلمس بل ادراكاً معنويًّا يصل الحاضر بالماضي فيمحصهُ ويخرج منهُ شعوراً يدهش لروما ويفخر بروما ويعجب بروما

وما روما الا وليدة هذا الادراك بل قل هذا الخيال تبحث عسى ان ترى لها شبهاً الآن فلا تظفر الا بذكريات او تشاهد حاضراً تقيسهُ الى ماض فلا ترى الا اطلالاً وصوراً . وما هذان الامران او هاتان الصورتان الخالدتان روما ؟

هما مجد الرومان الماضي . وعظمة البابوية الماضية والحاضرة والمستقبلة

هذان هما روما وما زاد على ذلك فبدعاية يحاول ان يبيدهُ موسوليني سيرتهُ الاولى

***

فني الكابيتول وهو لا يزال قائماً حولوه الى متاحف والى ادارة اعمال حكومية ترى القياصرة الذين اخضعوا العالم . تعرفهم في التماثيل الحجرية وتبين اعمالهم التي نقلها لنا التاريخ منقوشة على جسورهم وابنيتهم ومواقع جلادهم . فميزة مجد الرومان انهُ تاريخ متصل بالحاضر . فاذا كنت ممن قرأوا سيرة يوليوس قيصر مثلاً ثم قادك الحظ الى الكابيتول ورأيته ماثلاً امامك ورأيت المكان الذي ارداه فيه المتآمرون فيخيل اليك ان حبل العظمة الرومانية لم ينقطع وانها لا تزال قائمة حتى الساعة . وهذا فارق عظيم عما نشاهدهُ في الآثار الشرقية فان الدهر قد قطع الماضي عن الحاضر بما اقام من ديانات ولغات وعادات لم يعرفها الاولون فاصبح ابناء الشرق وكأنهم لا يمتون بنسب الى من توطن بلادهم في القدم فأصبحنا نراهم غرباء عنا نحاول عبثاً ان نعيد مجدهم او ان نقتفي آثارهم

وتطل من نوافذ الكابيتول فترى الفورُم مبسوطاً امامك ببقايا قصور الخاصة ومنازل العامة ويقوم من ورائه الكولوزيوم بناء شاهقاً كان خمسة ادوار فباد الخامس العالي وبقيت الاربعة الاخرى برهاناً على العظمة الرومانية — عظمة قواها الشدة والبأس حتى تبلغ القسوة بهذبها النظام والقانون والادارة المحكمة

وفي قلب الكولوزيوم الميدان المعد للمبارزين يصولون ويجولون فيه حتى يذهب المغلوب ضحية لشهوة الرومان المتفرجين . وهنا كانت تساق جماهير المسيحيين في ايامهم الاولى فريسة للاسود تطلق عليهم من مخابىء لها هناك

وترى ايضاً سرت اطلالاً لدور تنين وأطلالاً لحمامات رومانية وأطلالاً لقلاع وحصون فيطير بك الخيال الى ايام اصحاب هذه الدور وقد قرأت تاريخهم وحفظت اسماءهم وأعمالهم ورأيت تماثيلهم ثابتة على الدهر امام عينيك فتهمُّ ان تقرئهم السلام او تبادرهم بالكلام فيغلب جلال الموقف واجب التحية ويصمت الانسان امام عظمة تكاد تصبح ابدية . هذا مجد الرومان !

***

اما مجد البابوية فابقى !

وليست روما بعد زوال الرومان الا عاصمة البابوات توارثوا كرسيها كابراً عن كابر قائمين باعباء الدين والدنيا حتى اواخر القرن التاسع عشر اذ آثروا السلطان الروحيَّ على كل ما في العالم من سلطان . فكل قصر تراهُ في روما كان قصراً للبابا حتى الكرينال مقام ملك ايطاليا الآن . وكل كنيسة قائمة فيها كانت من بناء بابا حتى الينابيع الماثلة في طرق روما والتماثيل المنصوبة في معظم انحائها كلها بابوية الاصل والنسب وانه وان انكش المجد البابوي وانحسر عن السلطة الزمنية فهو لايزال مجداً روحيًّا ساطعاً ان تحول عن روما زالت ولم يبق لها أثر

وعظمة الكنيسة البابوية سرٌّ من اسرار الدهر

حاربتها السلطات الزمنية دهوراً طوالاً فاخذت ما كان لها من قوة عالمية وظنَّ اعداؤها انه قد حان اجلها فاذا هي مجردةٌ عن السيف اقوى واثبت منها وسيف الدنيا مصلت على رقاب الملوك والشعوب . وانشقت عنها الكنيسة البرتستانية ومن قبلها الارثوذكسية فاذا هذه تلبس لباس الشرق وما عليه من خيال وسفسطة وبلاء واذا تلك — وقوامها البحث والجدل تقسم على نفسها كنائس لا تعد ولا تحصى . واما البابوية فراسخة تمد فروعها الى كل الانحاء واصولها الى السماء . ذلك انها تكيفت مع الزمن وهذا هو سرُّ العظمة في نظامها العجيب

تلقت حملات نوميروس وناءت تحتها حتى خيل الى الرائي انها قد اشرفت على الاضمحلال ثم عادت وقد اصلحت بيتها وطهرته بجيوش من الرهبنات لموا شعثها

وانقلبوا بعد ذلك مهاجمين فصارت البابوية تسير الى الامام والكنائس الاخرى اما واقفة او سائرة الى الوراء

وانه مهما اقاموا من الهياكل لبطلها لويولا زعيم اليسوعيين ومهما احاطوا شأنه بالاعتبار البالغ حدَّ العبادة لا يفوتهُ حقهُ على ما فعل من تأييد البابوية وتثبيت دعائمها

***

هذان مجدا روما . وهذان جمالاها الخالدة . وكلا المجدين لا بد لروما الحديثة فيه . فروما اليوم شيء وروما التي خلعت عليها جلالها الايام شيء آخر

***

واعظم ما في روما كنيسة القديس بطرس بل هي اعظم معبد اقيم للمسيحية في العالم ضخامة في البناء يحيط به الجمال من كل نواحيه. اتساع حتى كأنها لا تضيق بابناء البشر وتقسيم يضيق الاتساع حتى يجعل منها معابد عديدة . وتماثيل القديسين تزين جدرانها ومداخل البابوات ترصع دهاليزها والفن في ارقى مظاهره يخيم على الكل ويظلل الجميع وعلى رأسه الآية الكبرى — كرسي البابوية يحمله القديسون الى علو

ووراءها الفاتيكان ! وليس للفاتيكان من جمال خارجي فهو بناء يجمع ابنية عدة بلا نظام وبلا تنسيق . مستطيل بلا ارتفاع ساذج الطلعة حتى انك تدخله من ازقة ضيقة وتصل الى داخله غير عالم انك في قلب الفاتيكان

ولكن اذا دخلت ردهاته ومررت بمكتبته وهي اعظم دار للكتب في العالم وتجولت في متاحفه ومنها متحف التماثيل الحجرية لا مثيل له في الدنيا ونظرت ما حوتهُ مقاصيرهُ من كنوز لا تقوَّم بثمن وتطلعت الى عظمة الفن وقد نجسمت على الجدران وفي السقوف من يد ميكال انجلو ويد رفائيل رأعك الامر واخذ عليك الجلال شعورك فتقف صامتاً حالماً كأنك لست من هذا العالم

وانك لا تفهم معنى الماضي وما يثيره في النفس من اثر لا يفنى . وانك لا تفهم السر في العظمة الروحية تشعر بها ولا تستطيع التعبير عنها . وانك لا تفهم الحقيقة في تسلط الوهم على البشرية . وانك لا تفهم الفن في كل ما اوحى الى الفنانين او في ماجعله شيئاً يسمى فناً . وانك لا تفهم معنى البودية المتأصلة في نفوس الناس — انك لا تفهم شيئاً من ذلك اذا لم تقف على اطلال روما الرومان ولم تشاهد روما البابوات — روما المدينة الخالدة

سامي الجريديني